إهداء

إلى الراحلين أبي وأمي
عاشا للفضيلة..
وما زال ضوؤهما يشع في قلبي.

obeikandl.com

obeikandi.com

مقدمة

obeikandl.com

obeikandl.com

كنت صغير السن في جلسات للكبار.. لكني شاهدًا علي أمسيات أبي وخالي الكبير عبد الرحمن، وبعض أقاربي فوق سطح دارنا بقرية كوم الآطرون طوخ قليوبية .

كانت أمسيات عامرة بحكايات من السياسة والفن، وتزداد تألقًا كلما كانت الأمسية بغرض الاستماع لأم كلثوم في حفلها المعتاد يوم الخميس الأول من كل شهر ،أو الاستماع لخطاب يلقيه جمال عبد الناصر، فينتقلون به إلى غد جديد .

شاهدت خالي وهو يقلب النار بيديه مرة وبـ« الماشة » مرة ، لتسوية الشاي علي نار هادئة ، وينتقل من حكاية إلى أخري عن شكل الناس المحظوظة بحضور حفلات أم كلثوم ومشاهدتها عن قرب، ولا يمل من ذكر قصة عمه علي وعم والدتي أيضًا الذي هاجر إلى القاهرة ، وأضرب عن الزواج؛ لأنه لم يجد متسعا في حياته لغير ثلاثة أشياء هي حضور حفلات أم كلثوم واقتناء كل نوادرها الفنية ، وزعامته لمشجعي الأهلي في منطقة لاظوغلي، وعدم التخلف عن حضور مباراة كرة قدم، أو تدريب لفريق الشياطين الحمر ، وحبه لجمال عبد الناصر، وحضور خطاباته السياسية التي كان يلقيها أمام الجماهير ، ولما مرض مرضه الأخير سافر خالي لزيارته فوجده في غيبوبة ، يصحو منها ثم يعود إليها ، وفي أذنه همس خالي :« شد حيلك يا عم علي علشان حفلة أم كلثوم بكرة » ، فانتفض قائلا :« بتقول فيها يا واد يا عبد الرحمن .. أنا بقي هروح الحفلة غصب عنكم » . يستكمل خالي :« قام عمي علي زي العفريت ، وقعد يغيب ويصحا لحد وقت الحفلة ، وقلنا له اسمعها المرة دي في الراديو ، علشان انت تعبان ، وربنا هداه ، كان بيسمع شوية ، ويغيب شوية ..وشوف الرجل ..بعد ما سمع الحفلة اتكل علي الله ومات ».

كانت حكاية الجد علي واحدة من عشرات، بل مئات الحكايات التي استمعت إليها في أمسيات الليل علي سطح دارنا ، وكان خالي بطبيعته حكاء خصب الخيال ، ولديه قدرة فائقة علي الانتقال بسلاسة من حكاية إلى أخرى ، وكانت حكايات السياسة تتشعب من أحوال جبهات القتال ضد إسرائيل وشهداء قريتنا ، إلى أخبار

جمال عبد الناصر، وحكايات عنه أشبه بالأساطير، ثم ما ذكره الراديو من مقال «بصراحة» ـ للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل ـ والذي كانت الأهرام تنشره كل جمعة، ويتم قراءته في الراديو.

كان الراديو جسرهم إلى العالم.. أما جلساتهم فكانت عندي العالم كله..

* هل كان هذا هو البدء عندي نحو حب جمال عبد الناصر وأم كلثوم؟..

ربما، فمخزون ذكرياتي من بيئتي الأولي الغنية بالتفاصيل الهامة ،يرشدني إلى ما كنت أنقله من حكايات أمسيات الليل إلى زملائي التلاميذ في المدرسة.

كما يرشدني لحكايات أخرى عن خالي الثاني الذي عرف طريقه إلى حفلات أم كلثوم بزيه الفلاحي الأنيق، وحديثه عن بكاءه المر ومشاهدته لبكاء الحاج حسنين فراج أحد وجهاء وأعيان قريتنا، وهما يحضران حفلتها التي شدت فيها بأغنية: «حسيبك للزمن.. لا عتاب ولا ندم»، «وحكايات العم محمد القاضي والد صديق الصبا والشباب مجدي ، عن كيف حضر حفلة أغنية « الحب كده » ، وخرج بعدها متجولا في شوارع القاهرة وهو يشعر أنه كالطير في السماء » ، وحكايات من عمدة قريتنا الراحل الحاج عزت عبد الحفيظ عن حفلاتها وانتظامه في حضورها ،وأكثر ما ندمت عليه في هذا المجال، أنني لم أسجل ما رواه لي هذا الرجل الفذ ، ...« ولا أنسي يوم وفاتها الذي تصادف مع يوم وفاة الجد الحاج عبد الباسط فايد ، فعاشت قريتنا حزنا إضافيا ، عرفته من وجه أبي وكلامه ، وبقيت هذه الذكريات نبضا ينعش أحاسيسي دائما ، واستدعيه من عالم قريتي الذي كان جسري الأول نحو معرفتي بهذه السيدة العظيمة ،كما أنه كان العالم الأكثر دلالة علي كيف شكلت هي وجدان كل قري ومدن مصر» .

والمؤكد أن كل هؤلاء كانوا في ذهن نجيب محفوظ، وهو يقول في رواية «ميرامار»: «ليلة غنائها هى ليلة جميع الطبقات، والأفراد، وصوتها علامة عصر

بأكمله».

عرفت فيما بعد أن جلسات الكبار على سطح دارنا.. كانت تعبيرًا عن حالة جماعية يعيشها الوطن العربى من محيطه إلى خليجه، فحين كان جمال عبد الناصر يلقي خطابًا سياسيًا، تتوحد كل موجات الإذاعة في الوطن العربى، منضبطة على ما سيقوله لتستمع الجماهير إلى من امتلك ناصية قلوبهم، وامتلك قدرة سحرية على صياغة أفكارهم وسلوكياتهم.

أما أم كلثوم، وكما قالت مجلة «لايف» الأمريكية عام ١٩٦٢م: في الساعة العاشرة ليلة الخميس الأول من كل شهر، يحدث شيء غريب في الشرق الأوسط.. يهدأ الضجيج في شوارع القاهرة فجأة، وفي الدار البيضاء التى تبعد ٢٥٠٠م ميل إلى الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة في المقاهى، وفي بغداد التى تبعد ٨٠٠ ميل إلى الشرق، يحدث نفس الشيء. الكل ينتظرون برنامجًا معينًا تذيعه إذاعة القاهرة، مدة هذا البرنامج خمس ساعات، ويذاع ثماني مرات في السنة، ونجمته مطربة اسمها أم كلثوم.

سالت هذه الذكريات وأنا أبحث عن مادة هذا الكتاب، وكنت أعتزم في البداية أن أخصصه فقط عن علاقة جمال عبد الناصر، وأم كلثوم لأسباب كثيرة لخصها شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ بقوله لبرنامج تليفزيوني فرنسي عنها: «أعطى عبد الناصر لغنائها معنى جديدًا»، لكن نصيحة تلقيتها من الكاتب الصحفي الكبير عادل حمودة، بأن أتوسع ليكون المجال هو علاقة أم كلثوم بحكام مصر التي عاصرتهم، وهي النصيحة التي جاءت في محلها تمامًا.. فأم كلثوم التي ولدت في قرية طماي الزهايرة ـ محافظة الدقهلية ـ في نهاية القرن الـ١٩، أو مطلع القرن العشرين وتوفيت في ٤ فبراير عام ١٩٧٤م عاصرت ثمانية حكام رسميين لمصر، فمولدها كان في عصر عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ -١٩١٤م)، وبدأت مسيرتها الفنية وهي

طفلة وكان ذلك في نهايات عصر عباس حلمي الثاني ، ومن بعده جاء السلطان حسين كامل حاكمًا لمصر (١٩١٤ -١٩١٧م) ثم السلطان أحمد فؤاد، والذي تحول إلى الملك فؤاد الأول ، وبلغت فترة حكمه سلطانًا وملكًا من ١٩١٧م حتى عام ١٩٣٦م، وانتقلت أم كلثوم إلى القاهرة في السنوات الأولى لحكم السلطان فؤاد ، وبعد الملك فؤاد جاء ابنه الملك فاروق الأول (١٩٣٦ -١٩٥٢م)، وفي عهده تربعت علي عرش الغناء .

قامت ثورة يوليو عام ١٩٥٢م وقررت خلع الملك فاروق ،وأسندت الحكم إلى أحمد فؤاد ابن الملك فاروق ، ولأنه طفلا تشكل مجلس وصاية عليه برئاسة الأمير محمد عبد المنعم من عام ١٩٥٢م حتى عام ١٩٥٣م .

انتقلت مصر بعد ذلك إلى الحكم الجمهوري فتولي محمد نجيب من ١٩٥٣م حتى ١٩٥٤م ، ثم جمال عبد الناصر من ١٩٥٤م حتى عام ١٩٧٠م، ثم أنور السادات من عام ١٩٧٠م حتى عام ١٩٨١ ورحلت أم كلثوم في عهده عام ١٩٧٤م .

ثمانية حكام لمصر في كل حياة أم كلثوم ،ولهذا فإن سيرة هذه السيدة - كما يوضح هذا الكتاب - هي سيرة وطن في مراحل تاريخية امتدت لعشرات السنوات في القرن العشرين، وشهدت هذه السنوات تحولات هائلة في المسارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، وانتقلت مصر والمنطقة العربية من حال إلى حال، ولم تكن أم كلثوم بعيدة عن كل هذا، بل انغمست انغماسًا مباشرًا في أحداث وتفاعلات سياسية هامة أكدت على تمازج الفن بالسياسة.

وتأتي هذه الطبعة الجديدة لتضيف وقائع على ما جاء في الطبعة السابقة، وتعطي مساحة متسعة عما جاء في الطبعة الأولي حول مراحل أم كلثوم في عهود السلطان حسين كامل، والملك فؤاد، والملك فاروق، كما تصحح بعض الأخطاء، وتدقق

بعض الأحداث التاريخية. كما رأيت أن أزوده في نهايته بنص مقالها الكامل الذي كتبته عن جمال عبد الناصر في ذكرى رحيله الأولى عام ١٩٧١م والحصيلة ليست تأريخا لسيرة أم كلثوم، وإنما محاولة البحث في كيفية تفاعلها مع المراحل السياسية التي عاشتها.. وكيف تعاطت مع من حكموا الشعب المصري وهي منه؟ وكيف نظر إليها هؤلاء الحكام؟ وكيف انعكست هذه العلاقة على مشروعها الفني؟

أسئلة كثيرة يحاول هذا الكتاب البحث عن إجابة لها، وذلك بالعودة إلى المراجع، والاستماع إلى شهادات شخصيات اقتربت من أم كلثوم ليعطي كل ذلك صورة، اجتهدت في نقلها قدر الإمكان بما فيها من تداخل بين الفن والسياسة، وتقارب الأشخاص وتباعدهم، والمعاني الإنسانية التي تفاعلت تحت السطح، وفوقه لتؤكد أننا أمام بشر هم قطعة من لحم ودم هذا الوطن، واتبعت أسلوب «الفلاش باك» في الكتابة .

و أتقدم بالشكر إلى كل الذين شجعوني لإنجاز هذا الكتاب، وزودني بنصائح بعد قراءة الطبعة الأولى ، ولا أنسي نصيحة الكاتب الكبير، والمترجم الرفيع الأستاذ محمد الخولي الذي قال لي بعد قراءته للطبعة الأولى: أنه يتمنى أن يرى الطبعة الثانية مرجعا شاملا عن أم كلثوم ، وأتقدم بالشكر إلى زوجتي وأبنائي الذين تحملوا انصرافي عنهم لإنجاز هذا الكتاب .

سعيد الشحات

كوم الآطرون - طوخ - قليوبية

١٤ أكتوبر ٢٠١٠م